

أصناف الحجاج وتقنياته في الشعر العربي القديم

دراسة في بعض النماذج

أ.ة. بوصلاح فايزة

جامعة عبد الحميد ابن باديس

جامعة مستغانم

توطئة:

إنّ الخوض في مسألة الحجاج يعني بالضرورة النظر في مختلف الحجج التي وظفها المخاطب أو القائم بالحجاج بغية الإقناع أو الحمل على الإذعان، مما يقتضي من الدارس حصر مجموعة الحجج أولاً، ثم تصنيفها وإبراز الفوارق القائمة بينها ثانياً. ولقد شهدت الدراسات البلاغية منذ ستينيات هذا القرن -تقريباً- نهضة قوية، بها استعادت مكانتها في عالم المعرفة بعد ركود دام فترة طويلة، غير أن هذه الدراسات وهي تحقق هذه الاستفاقة، وتستعيد تلك المنزلة قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمباحث الحجاجية والتداولية¹.

فالحجاج هو الآلية التي تتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع، حيث أن نقل المعلومات وتبادل الآراء والأفكار بين المرسل والمتلقي، يتضمن القصد والنية في مضمون الرسالة لإحداث الإقناع بأسلوب المحاجة. وهو ما سنوضحه في هذه الدراسة من خلال: ماهية الحجاج وأصنافه.

1_ ماهية الحجاج:

أ- **الحجاج لغة:** يرى ابن منظور الحجاج: "من حاجّه مُحاجَّةً وحجاجاً: أي نازعه الحُجَّةَ".² ونجد حاجّ بمعنى خاصم، فيقول ابن عاشور في تفسيره: "ومن العجيب أنّ الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى مع أنّ حاجّ لا يستعمل غالباً إلا في معنى المخاصمة... وأنّ الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل".³ وأصل الحجاج من: حَاجَبَهُ يُحَاجِبُهُ مُحَاجَبَةً، إذا ناظره وجادله، ولكن أدغم أحد الجيمين في الآخر لتماثلهما.⁴ والمحاجة عند ابن رشد هي تثبيت الشيء بالكلام المقنع أو ما يظن به أنّه مقنع.⁵ ويقول الزبيدي: "حَاجَبْتُهُ أَحَاجُهُ حِجَاباً وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَجَبْتُهُ، أَي غَلَبْتُهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي أَذْلَيْتُ بِهَا".⁶ ويقول أيضاً: حَاجَبْتُهُ فَأَنَا مُحَاجٌّ وَحَجِيجٌ. ومنه حديث معاوية فَجَعَلْتُ أَحَجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُهُ بِالْحُجَّةِ.⁷ وَحَجَّه يَحُجُّهُ حَجًّا: غلبه على حُجَّتِهِ، وفي الحديث: "فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى" أَي غَلَبَهُ بِالْحُجَّةِ. وأما احْتَجَّ بالشيء: اتخذهُ حُجَّةً. ⁸ فالحجّة عرّفها الأزهرى بقوله: "الحُجَّةُ الوجه الذي يكون به الظفر عند

الخصومة"9. فهي الدليل والبرهان. ويرى جميل صليبا أنّ الحجّة هي البيّنة ومنها قولهم: "البينة على المدعي"، ومعنى هذا القول أنّ عبئ الاستدلال يقع على المدعي لا على المنكر10.

نستخلص ممّا تقدم أن الحجاج لغة لا يعدو عن ثلاثة معاني رئيسة وهي: المنازعة والغلبة بالحجّة، والمخاصمة، والمجادلة. لقد وجدنا اختلاف جزئي في استعمال الجذر (ح ج ج)، فمنهم من يستعمل (الحجاج) ومنهم من يفضل (التحاج) ومنهم من يقول (التحاجج)، ومنهم من يستعمل (المحاجّة أو المحاججة)، وغير ذلك من الاصطلاحات الاشتقاقية. غير أنّ الجهاز الاصطلاحي المعتمد في الدراسات العربية من داء الخلط وعدم الدقة والاشترك11.

ب- الحجاج اصطلاحا:

إنّ تحديد مفهوم الحجاج يصعب حصره وتحديده أمام هذا الكم الهائل من الكتابات والمرجعيات النظرية " إذ نجده متواتر في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغية التقليدية، وفي الدراسات القانونية، والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة." 12 ولكن ما يهمننا نحن في هذا المبحث هو دراسة الحجاج من خلال المجال التداولي، والذي حمل لواءه برلمان (Perelman) وتيتكا (Tyteca) من خلال كتابهما "مصنّف في الحجاج-البلاغة الجديدة"13.

1 - أصناف الحجاج:

يمكن تصنيف الحجاج إلى صنفين هما: الحجاج التوجيهي والحجاج التقويمي، وذلك باعتبار استحضار حجج المرسل إليه من عدمه، سواء الحجج السابق أو المتوقع، فقد يكتفي المرسل بإنتاج خطابه دون تفكير فيما لدى المرسل إليه من حجج قد يواجه بها. أو بأن يضع تلك الحجج المفترضة أو المتوقعة في حسبانته فتصبح أساسا يبني عليه خطابه.

أ - الحجاج التوجيهي:

وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختص به المستدل، علما بأن التوجيه هو فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره، فقد ينشغل المستدل بأقواله من حيث إلقاؤه لها، ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المخاطب لها وردّ فعله عليها، فتجده يولي أقصى عنايته إلى قصده وأفعاله المصاحبة لأقواله الخاصة، غير أن قصر اهتمامه على هذه القصور والأفعال الذاتية يفضي به إلى تناسي الجانب العلائقي من الاستدلال. هذا الجانب الذي يصله بالمخاطب ويجعل هذا الأخير متمتعا بحق الاعتراض14.

ويعد هذا الصنف من الحجاج في مستوى أدنى من الحجاج التقويمي، باعتبار أن المرسل يكتفي بقصده فقط في تكوين حججه وتنظيم خطابه، فلا يضع في الحسبان اعتراضات المرسل إليه، ولا يسبق حججه ليدحضها ويصل إلى إقناعه، وكأنه لا يقيم وزنا كبيرا له، فهو يكتفي بمجرد إيصال حججه إليه.

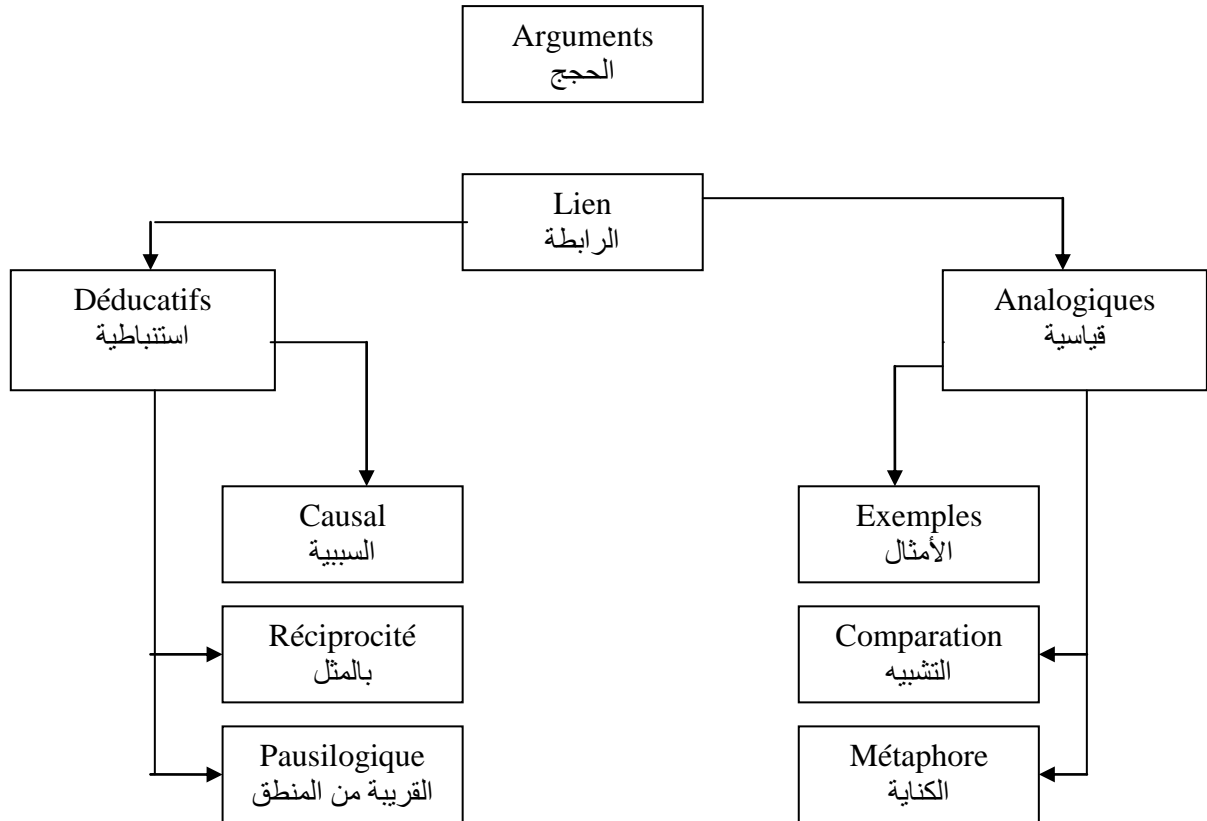
ب - الحجاج التقويمي:

يعرف الحجاج التقويمي 15 على أنه "إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المعارض على دعواه، فها هنا لا يكتفي المستدل بالنظر في فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب، واقفا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط. بل يتعدى إلى ذلك بالنظر في فعل التلقي باعتباره هو نفسه أول متلق لما يلقي، فيبني أدلته على مقتضى ما يتعين على المستدل له أن يقوم به مستبقا استفساراته واعتراضاته مستحضرا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفا إمكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها. وهكذا فإن المستدل يتعاطى لتقويم دليله بإقامة حوار حقيقي بينه وبين نفسه، مراعيًا فيه كل مستلزمات التخاطبية من قيود تواصلية وحدود تعاملية، حتى كأنه عين المستدل له في الاعتراض على نفسه." 16

وهذه العملية التي تكتنف هذا الصنف من الحجاج يسميها كل من "إيميرث وجرونتت ورست" بالحوار الضمني، وهدفه هو درء الشك المتموقع من المرسل إليه، أي أن المرسل يراعي في خطابه الحجاجي ما يمكن أن يعارضه به المرسل إليه من حجج، فيضعها في الحسبان أثناء بناء خطابه، ويمحصها عند استحضر حججه، فينفذها ويعارضها بالحجج التي يتوقعها من المرسل إليه. فلا يتمسك بها إلا إذا أدرك أنها تؤول بخطابه إلى القبول والتسليم.

أما فيليب بروتون (Breton) فقد قسم الحجاج إلى حجج قياسية واستنباطية ممثلة في المخطط

التالي: 17



مخطط لأنواع الحجج عند فيليب بروتون Philippe Breton

1- الحجج الاستنباطية: هي خلق سلسلة من العناصر مرتبطة برابطة قوية مثال: أصدقاء أصدقاؤهم أصدقاؤهم، وينطوي ضمن هذا النوع أنواع أخرى من الحجج منها:

أ- الحجج الاستنباطية السببية:

هي العلاقة بين السبب والمسبب، فهي "نقل الرأي المراد إيصاله باستعمال السبب أو النتيجة لبعض الأشياء التي لها علاقة به" 18

ب- الحجج الاستنباطية التي تعمل على المعاملة بالمثل:

تتص هذه الحجج أساسا على إصدار نفس العلاج لنفس الظواهر المتشابهة، وحسب " بروتون" تتواجد أساسا في الأحكام القانونية بصيغة رسمية، الذين لهم نفس الخصائص لا بد أن يحاكموا بنفس الطريقة.

ج- الحجج الاستنباطية القريبة من المنطق:

تقوم على استعمال برهان قريب من البرهان العلمي، مما يظهر صعوبة في تمييز المناورة- التضليل- كما تساعد على تقوية الافتراضات مثال: أعداء أعدائي هم أصدقاؤهم.

أما بالنسبة للحجج القياسية، فهي تتمثل أساسا في ربط علاقة بين حقلين من الواقع، كأن نقول: بيل غايت استطاع تكوين ثروة

بيل غايت أمريكي

كل أمريكي يستطيع تكوين ثروة

2- الحجج القياسية: أما الحجج القياسية فتتقسم بدورها إلى ثلاثة عناصر هامة هي:

أ- المثال: استعمال المثال من أجل الإقناع.

ب- الكناية: يمكن أن تصبح حجة إذا كانت تدافع عن أطروحة أو رأي.

ج- التشبيه: هي المقارنة بين شيئين من أجل كشف وجه الشبه، يستعمل بكثرة في المحاجة بهدف الإقناع والتلاعب بالعقول، كما يهدف إلى البرهنة وليس لتزيين المعروض.

في حين نجد تصنيفا آخر للحجاج والذي يتمثل في تصنيف مجموعة حجج تشترك في طبيعتها وبنيتها العامة ولكنها تتباين في أمور جزئية، وأهم هذه التصنيفات هي: 19

1- الحجج شبه المنطقية Arguments quasi- logiques: فحقيقة هذه الحجج أن كل حجة منها

تستند إلى مبدأ منطقي " كالتطابق أو التعددية أو التناقض". يقول بيرلمان: "إنها حجج تدعي قدرا محددا من اليقين من جهة أنها تبدو شبيهة بالاستدلالات الشكلية المنطقية أو الرياضية، ومع ذلك فإن من يخضعها إلى التحليل ينتبه في وقت قصير إلى الاختلافات بين هذه الحجج والبراهين الشكلية، لأن جهدا يبذل في الاختزال أو التدقيق فحسب- يكون ذا طبيعة لا صورية- يسمح بمنح هذه الحجج مظهرا برهانيا ولهدا السبب ننعته بأنها شبه منطقية" 20. هذا يعني أن الحجج شبه المنطقية تتخذ منطقا شكليا فيه تتداخل المعطيات وتتكيف فتجعلها شبيهة باستدلال منطقي صارم.

وعلى العموم تنقسم الحجج شبه المنطقية إلى نوعين: حجج شبه منطقية تعتمد على البنى المنطقية كالتناقض والتعددية، وحجج شبه منطقية تستند إلى العلاقات الرياضية كإدماج الجزء في الكل إلى أجزائه.

1- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على البنى المنطقية:

أ- مبدأ التناقض وعدم الاتفاق:

إن الخطاب الحجاجي يلتجئ أحيانا إلى مبدأ عدم الاتفاق *Incompatibilité* إذ يدفع الحجاج قضية ما ميينا أنها لا تتفق مع أخرى، وهو أمر شائع في أشعار القدامى 21 كأن يؤكد "عمرو بن كلثوم" أن لومه على الحب واستنكار تشبيهه بمن يحب لا يتفقان مطلقا مع العدل فيقول من الوافر 22:

أفي ليلي يعاتبني أبوها وإخوتها وهم لي ظالمونا
كما يعتمد النابغة الديباني الحجة ذاتها حين يحتج بارتباط المعصية بحب الله، فيقول من الكامل 23:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هدا لعمرك في المقال بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ب- مبدأ التماثل:

وفيه يعتمد المحتج لفكرة أو مبدأ إلى التعريف وضبط الحدود سواء كانت عبارة عن مفاهيم أو أشياء أو أحداث أو وقائع. هدا النوع من التعريف شائع في خطابنا اليومي كأن نقول: "الدنيا هي الدنيا" فالدنيا قد تفهم على أنها الحياة بمتعها وملذاتها ومشاكلها، كما قد تؤول إلى الإغراء والفتنة المتجسدة في المرأة. ونجد في الشعر القديم مثل هدا التماثل في قول طرفة بن العبد من البسيط: 24
الخير خير وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
يؤكد طرفة بن العبد وجوب التحلي بالفضيلة لأن الخير قيمة ثابتة لا تتغير في الإنسان مهما طال الزمان بها.

ج- مبدأ التبادل *Réciprocité*:

مبدأ التبادل أو المبادلة هي علاقة منطقية خالصة، غير أن الحجة تظل شبه منطقية "لأنها إسناد للحكم ذاته إلى أمرين ندعي أنهما متماثلين والحال لو أننا لو أخضعناهما إلى الدراسة الدقيقة لانتبهنا إلى فروق عديدة بينهما 25، لذلك يقول ليونال بلنجي "إن الحجاج عن طريق العلاقة التبادلية التي تقوم عليها حجج شبه منطقية عديدة يصبح ممكنا بشرط تناسي كل ما يفرق بين الأوضاع وتعديلها بشكل تغدو معه متطابقة" 26، فتنقية المبادلة جلية في قول امرؤ القيس من الطويل: 27

فقلت له لما عوى: إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

فقد مائل امرئ القيس بين وضعيته ووضعيتها الذئب فكلاهما يطلب الغنى وينشده، أما في صدر البيت الثاني أسند إلى نفسه وللذئب الصفة نفسها وهي تضييع ما نيل بعد جهد وعناء. كما نجد بيت الخنساء الشهير وهي ترثي شقيقها صخر من الوافر: 28

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

يقوم هذا البيت على نفس الحجة إذ تواسي الخنساء نفسها التي ترفض العيش بعد رحيل شقيقها، وتحمل نفسها على التعزي والتجد فتتهون عليها الباقيات حين تجعل وضعيتها مماثلة لوضعياتهن.

2 - الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية:

تعتمد هذه الحجج على قواعد رياضية التي تؤسس طاقتها الحجاجية بهد الإقناع وهي عديدة أهمها:

أ- حجة التعدية Argument de transitivité: يتمثل أساس هذه الحجة في المعادلة الرياضية

التالية: أ×ب



أ×ج

ب×ج

وتقدم أغلب الدراسات المرتبطة بالحجاج نفس المثال لتوضيح حجة التعدية فمثلا قولنا : صديق

صديقي هو صديقي، أو عدو صديقي هو عدوي. ومن أشهر ما قيل في الرثاء أبيات متمم بن نويرة من

الطويل: 29

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتدراف الدموع السوافك

قال أتبكي كل قبر رأيتَه لقبر توى بين اللوى والدكادك

فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا فدعني فهذا كله قبر مالك

قد بنيت هذه الأبيات كما نرى على حجة التعدية إذ مائل الشاعر بين قبر مالك وجميع القبور فبكاها

وساوى بين الشجا الذي يخلفه قبر مالك وبقية القبور.

فمبدأ التعدية في الدواوين الشعرية القديمة كثير الشيوخ في "الغزل" فهو الغرض الذي يحتفي به

الشاعر إذ يحتج العاشق لقوة حبه للمحبيب وعجزه عن مكابدة الشوق والهجران، فيقول جميل من الطويل:

30

أحب الأيامى إذ بثينة أيم31 وأحبيت لما أن غنيت الغوانيا

فمبدأ التعدية في هذا البيت كان بواسطة علاقة التساوي فبثينة أيم فأحب الأيامى، وبثينة غانية

فأحب الغواني. ونجد شعرا كثيرا في هذا المجال ولا نجد بدا إلا أن نذكر بعض الأبيات من الغزل

العفيف:

حين علم قيس بمرض ليلي وأخبروه أنها بالعراق، أشفق على مرضى العراق وأبكاهم بقوله من

الطويل: 32:

يقولون ليلي بالعراق مريضة فمالك لا تضنى وأنت صديق

سقى الله مرضى بالعراق فإنني على كل مرضى بالعراق شفيق

ويقول أيضا من الطويل33:

أقول لظبي مر بي وهو راتع أنت أخو ليلى فقال يقال

أيا شبه ليلى إن ليلى مريضة وأنت صحيح إن ذا لمحال

ويقول أبو ذؤيب الهذلي من الكامل34:

وأرى البلاد إذا سكنت غيرها جدبا وإن كانت تطل وتخصب

وأرى العدو يحبكم فأحبه إن كان ينسب منك أو يتنسب

ت تقسيم الكل إلى أجزاء Argument de division: يقوم هذا المبدأ من الحجج على تقسيم الكل إلى أجزاء المكونة له.

والمتمأمل في الشعر العربي القديم يتوصل إلى هذه الحجة من خلال غرضي الهجاء والمدح، لأن الشاعر حر متى أراد مدح قبيلة عمد إلى مدح بعضها سواء كان من سادتها أو فرسانها. وهذا ما نجده عند زهير بن أبي سلمى حين مدح الحارث بن عوف بن أبي حارثة وهرم بن سنان لسعيهما للصلح بين عبس وذبيان إذ خصهما بالمدح أولا فقال من الطويل:35

تداركتما الأحلاف قد تل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

فأصبحتما على خير موطن سبيلكما فيه وإن أحنونا سهل

ثم ينتقل في مستوى ثان ليمدح سادات قومهما فيقول:

وفيهم مقامات حسان وجههم وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعترتهم وعند المقلين السماحة والبدل

لينتهي بتعميم حكم الجزء على الكل إلى مدح بني مرة فيقول:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا

ج- إدماج الجزء في الكل، حجة الاشتمال L'argumentation par inclusion: هذا النوع يقوم

على مبدأ رياضي وهو ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء، وأكثر ما نجد هذا النوع من الحجج في "المراثي" حيث يعزي الشاعر نفسه بالاحتجاج بشمولية المصيبة، فالمنية مصير الكل وما المرثي إلا الجزء من هذا الكل، تقول الخنساء من البسيط:36

أخنى على واحدي ريب الزمان وما يبقي الزمان على شيء ولا يدر

ويقول لبيد من الكامل في نفس السياق:37

أولم تري أن الحوادث أهلكت إرما ورامت حميرا بعظيم

لو كان حي في الحياة مخلدا في الدهر ألفاه أبو يكسوم

3 - الحجج المؤسسة على بنية الواقع Arguments fondés sur la structure du réel

يعتمد هذا الصنف على التجربة والعلاقات المكونة للعالم، أي تفسير الأحداث وتوضيح العلاقات الرابطة بين عناصر الواقع. وترتكز هذه الحجج على ثلاثة عناصر هامة هي:
أ- عنصر التتابع: الحجة السببية

يمكننا أن نبني الحجاج على تتابع الأحداث بصفة ثابتة ومنتظمة، وقد شاع هذا الضرب في الشعر القديم حين اعتمده الشعراء في تبرير الأحداث وتدعيم المواقف،
من ذلك قول سبيع بن الخطيم:38

بانئت صدوف فقلبه مخطوف ونأت بجانبها عليك صدوف
واستبدلت غيري وفارق أهلها إن الغني على الفقير عنيف

ب- عنصر الغائية: حجة التجاوز

هذا الصنف تجده شائعا في شعر الصعاليك 39 الذين يعمدون إلى الاحتجاج بمقولة الغاية تبرر الوسيلة، وهذا قول الشنفرى من الطويل:40:

أمش على الأرض التي لن ترضني لأنكي قوما أو أصادف حمتي
أمشي على أين الغزاة وبعدها يقربني منها رواحي وغدوتي

ج- عنصر التعايش: حجة الشلطة

تتمثل هذه الحجة في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبؤ به انطلاقا من الذات التي يعبر عنها، كأن يقول زهير بن أبي سلمى من البسيط:41

إن ابن ورقاء لا تخشى غوائله لكن وقائعه في الحرب تنتظر

في هذا البيت تتبأ الشاعر بوفاء ممدوحه الحارث بن ورقاء وانتصاره في الحرب، وغير بعيد عن هذا القول نجد عنتره يقول من البسيط:

لا يحمل الحقد من تعلق به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

إذ بدا عنتره واثقا من أن الفاضل لا يعرف الحقد طريقا إلى قلبه، وأن العاجز عن كظم غيظه لا ينال المجد أبدا، وهنا ربط الصفات بالذات وكانت هذه حجته.

4 - الحجج المؤسسة لبنية الواقع Arguments fondant la structure du réel: تقوم هذه

الحجة ببناء الواقع وتأسيسه، أو على الأقل تكمله وتبين ما أضر من علاقات بين الأشياء، من خلال تقنيتين من الاستدلال المؤسس لبنية الواقع وهما:

أ- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة:

نجد أن جل الشعر العربي القديم ينزع إلى اتخاذ الحالة الخاصة لتثبيت الآراء وتدعيم الأفكار بتعميمها وتوسيعها، فتغدو تجربة الشاعر منطلقا للحكمة وإذا بالحكمة ندعم التجربة الذاتية للشاعر، فتغدو العلاقة

الحجاجية ذات حدين: الخاص يبرر العام والعام يؤكد الخاص ويثبتته. فيقول الأقيشر (المغيرة بن الأسود

بن وهب) من الطويل:42

وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ولم تنغر بها ساعة قدر
أتاني بها يحيى وقد نمت نومة وقد غارت الشعرى وقد خفق النسر
فقلت اغتبقها أو لغيري فأهدها فما أنا بعد الشيب وبيك والخمر
إذا المرء وفي الأربعين ولم يكن له دون ما يأتي حياء ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى وإن جر أرسان الحياة له الدهر
فالشاعر وإن تحدث في البداية عن الذات والخمرة، إلا أنه في الأخير يجري قوله مجرى الحكمة
المتحررة من المكان والزمان

5 - حجج تستدعي القيم Arguments fondés sur la valeurs: في هذه الحجج الشاعر لا
يستدعي القيم الكلية فحسب بل يعتمد على القيم التي تكون متفقة عند قومه، هذه القيم تختلف
من قبيلة إلى أخرى من عدل وعقل وشجاعة وعفة وغيرها. فيقول كعب في مدح حلم رسول
الله:43:

أنبأت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
ثم ينتقل إلى مدح صدقه وشدة بطشه:

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول
حجج تستدعي المشترك Arguments basés sur le commun: وهي الخطابات التي تستدعي
المشترك أو الشراكة التي تقوم على اتفاق بين المتلقين أو جملة من المعارف المشتركة الشائعة بينهم.
فنجد في الشعر العربي القديم عدة نماذج منه تختلف من غرض إلى آخر، فنقول الخنساء في رثائها
لصخر:44:

ولهفي على صخر لقد كان عصمة لمولاه إن نعل بمولاه زلت
يعود على مولاه منه برأفة إذا ما الموالي من أخيها تخلت
فتى كان ذا حلم أصيل وتؤدة إذا ما الحبي من طائف الجهل حلت
فهذه الأبيات جاءت متواترة دو معاني رثائية مؤثرة، تعود إلى القيم العربية من نصرة المستضعفين من
الموالي، وسمة الحلم والصبر.

6 - تقنيات الحجج:

يعتمد الخطاب في الحجج على تقنيات معينة، توظف حسب استعمال المرسل لها الذي يختار
حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع سياق خطابه(مهما كان نوع الخطاب: سياسي، احتجاجي،...).

ويقسم "بيرلمان وزميله" تقنيات الحجج اللغوية إلى فئتين هما:45:

أ- **تقنيات طرق الوصل:** وهي ما يتم به فهم الخطط التي تقرب بين العناصر المتباعدة في الأصل لتمنح
فرصة توحيدها من أجل تنظيمها، وكذلك تقديم كل منها بواسطة الأخرى سلبا أو إيجابا.

ب- **تقنيات الفصل:** هي التي تكون غايتها توزيع العناصر التي تعد كلا واحدا، أو على الأقل مجموعة متخذة ضمن بعض الأنظمة الفكرية، أو فصلها أو تفكيكها، لكن هذه الأدوات لا تستوعب كل الحجج، وإنما هي قوالب تنظم العلاقات بين الحجج والنتائج، أو تعين المرسل على تقديم حججه في الهيكل الذي يناسب السياق، وعليه يمكن تقسيم تقنيات الحجاج إلى:46

1- الأدوات اللغوية: يمكن تقسيمها إلى:

أ- **ألفاظ التعليل:** تعد من الأدوات اللغوية التي يستعملها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه، ومنها المفعول لأجله (المصدر الذي يدل على سبب ما قبله)، وكلمة السبب أي الوصل السببي (هو أن يعد المرسل إلى الربط بين أحداث متتابعة، مثل الربط بما يمكن أن يكون المقدمة والنتيجة، فتصبح النتيجة مقدمة لنتيجة أخرى)، ولأنّ (تستعمل لتبرير الفعل أو عدمه). إذ لا يستعمل المرسل أي أداة من هذه الأدوات إلا تبريرا أو تعليلا لفعله، بناء على سؤال ملفوظ أو مفترض.

ب- الأفعال اللغوية:

يرى فان اميرن وجروونت ورست " أنها تسهم بأدوار مختلفة في الحجاج، إذ يضطلع كل منها بدور محدد في الحجاج بين طرفي الخطاب، وتترتب الأفعال حسب مقدار الاستعمال، فالمرسل يستعمل أغلب أصناف الفعل التقريري. الفعل التقريري إن لم يكن كلها ليعبر عن وجهة نظره، وليحدد موقفه من نقطة الخلاف، كما يستعمله للمواصلة في حجاجه من خلال التأكيد أو الادعاء، ولتدعيم وجهة نظره أو للتراجع عنها عند اقتناعه بأنها لم تعد صالحة، كما يعبر بها عن تنازله عن دعواه، وكذلك لتأسيس النتيجة، فعلى أساس هذا الهدف من الخطاب يوصف إذ كان حجاجيا أم لا، إذن فالهدم من الخطاب الحجاجي هو إزالة شك المستقبل في وجهة نظر محل خلاف.

وقد صنّف "سيرل" الأفعال اللغوية إلى **أفعال التزامية** التي تستعمل في التعبير عن قبول وجهة النظر أو الرغبة في الحجاج من عدمه وفي تدعيم موقف المرسل، الذي اتخذه للتعبير عن الموافقة على مناصرة الدعوى أو معداتها.

وأفعال توجيهية التي يقتصر المرسل على استعمال البعض منها، مثل الأوامر، وأفعال التحريم، ذلك لأن بعضها الآخر يناسب ما تقتضيه طبيعة النقاش.

ج- الحجاج بالتداول:

يحاول المرسل بهذه الآلية أن يصف الحال نفسه في وضعيتين تنتميان إلى سياقين متقابلين، وذلك ببورة علاقات متشابهة بين السياقات، كما يمكن أن تكون الحجج نقلا لوجهة النظر بين المرسل والمرسل إليه كقولنا: ما يأتي بسهولة يذهب بسهولة، أو عامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

د- **الوصف:** يشمل عددا من الأدوات اللغوية منها:

- الصفة: والتي تمثل حجة للمرسل في خطابه، من خلال إطلاقه لنعته معين في سبيل إقناع المرسل إليه.

- اسم الفاعل: يعتبر من نماذج الوصف التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفها حجة، ليسوغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، لتبني عليه النتيجة التي يريد.

ه- تحصيل الحاصل:

هناك من يجد بعض الخطابات مجرد حشو أو تحصيل الحاصل لا تقدم شيئاً في الخطابات. والحق أن كلّ من الخطاب يضطلع بدلالته الحجاجية فمن صور تحصيل الحاصل، ذكر ما يعد حشواً من وجهة نظر الدلالية، لكنه بمقتضى معيار الحجاج، يتبين أن لتوسيع الحملة مبررات كافية، باعتبار أن طول الجملة قد يفتح اتجاهات خطابية حجاجية مهمة.

2- الآليات البلاغية: ومن أقسامها:

أ- تقسيم الكل إلى أجزائه:

قد يذكر المرسل حجته كلياً في أول الأمر، ثم يعود إلى تنفيذها وتعداد أجزائها، إن كانت ذات أجزاء، و ذلك ليحافظ على قوتها الحجاجية، فكل جزء منها بمثابة دليل على دعواه.

ب- الاستعارة:

تكمّن فعاليتها في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تمثّل أبلغ وأقوى الآليات اللغوية أرغم اكتشاف السياق الكثير من العناصر، ويظهر التوجه العلمي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، إذ تكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك المرسل إليه إلى الاقتناع.

ج- التمثيل:

هو عقد الصلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج، وبيان حججه.

د- البديع:

لدور الحجاجي للمستوى البديعي للخطاب ليس لزخرفته، ولكن بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد حتى لو تخيل الناس غير ذلك. فأساليب البيان مثلاً كالمقابلة والجناس والطباق وغيرها، ليست اصطناعاً للتحسين والبديع وإنما هي أصلاً أساليب للإبلاغ والتبليغ.

3- السلم الحجاجي:

وهو عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية، وهو فيه بالشرطين التاليين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معيّن، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه. ويتحقق

الحجاج بالسلم الحجاجي باستعمال أدوات لغوية، وآليات شبه منطقية كالتالي:

1- الأدوات اللغوية: ومنها:

- الروابط الحجاجية: وهي التي تربط بين قضيتين، وترتب درجاتها بوصف هذه القضايا حججا في الخطاب مثل: "بل لكنّ، حتّى، فضلا عن، ليس كذا فحسب،...."
- السمات الدلالية: ولأنّ السلم الحجاجي يعود في ترتيب حججه والمفاضلة بين قواها على رؤية المرسل، فإنّ الحجة الواحدة قد ترتقي إلى أعلى السلم من وجهة نظر معينة، كما قد تندو إلى أدنى السلم حسب وجهة نظر أخرى. وهذه ميزات السلم الحجاجي في إيجاد العلاقة المجارية بين مكوناته وتمثيلها.
- درجات التأكيد: ويتم استعمال التوكيد بترتيب درجاته لغويًا، وذلك عند إنتاج الخطاب الخبري في ثلاث درجات من التوكيد، طبقا لثلاثة سياقات كما يصنّفها السكاكي "إلى: الخبر الابتدائي، الخبر الطلبي، الخبر الإنكاري.

2- الصيغ الصرفية: وفيها:

- أفعال التفضيل: وهو اسم مشتق على وزن: أفعل، يدل على أن شيئين اشتركا في معنى، وزاد أحدهما على الآخر فيه، فالدعائم التي يقوم عليها التفصيل الاصطلاحي ثلاثة:

1- صيغة أفعل وهي اسم مشتق.

2- شيئان يشتركان في معنى خاص.

3- زيادة أحدهما على الآخر في هذا المعنى الخاص.

- صيغ المبالغة: تفيد الكثرة والمبالغة الصريحة في معنى فعلها الثلاثي الأصلي، ما لا تفيدُه إفادة صريحة، وتأتي على صيغة فاعل، وأشهر أوزانها خوسة قياسية هي: فَعَّال، مَفْعَال، فَعُولٌ، فَعِيلٌ، فَعَل. وهناك صيغ قليلة مقصودة على السماع عند القدماء أشهرها من الفعل الماضي الثلاثي: فَعِيلٌ.
- فحوى الخطاب:

وهو من أهم أوجه تجليات الحجاج عبر السلم المفهومين، وهو أن ينص على الأعلى وبينه على الأدنى، أو ينص على الأدنى وبينه على الأعلى. فحكم هذا حكم النص، وهنا يتضمن التلقظ بالدرجة العليا في السلم ونفي ما عداها ضمنا، كما قد يكون ترتيب الحجة ضمنيا، وذلك بتوظيف المعرفة المخزونة والسابقة، ومناسبتها للسياق.

- حجة الدليل:

الحجج الجاهزة أو الشواهد هي من دعائم الحجاج القويّة، إذ يضعها المرسل في الموصول المناسب، وهنا تبتدئ أهليته وبراعته في توظيفها حسب ما يتطلبه السياق، ويمكن تصنيفها في الحجاج بالنظر إلى طبيعتها المصدرية، فهي ليست من إنتاج المرسل، بقدر ما هي منقولة على لسانه بين كفاءته التداولية. إذ يكمن دوره في توظيفها توظيفا مناسباً في خطابه، وبهذا فهي تعلقو الكلام العادي درجة، ممّا يجعلها ترقى في السلم الحجاجي إلى ما هو أرفع.

وستهتم هذه الآلية في رفع ذات المرسل إلى درجة أعلى، وبالتالي منحها قوة سلطوية بالخطاب عند التلقظ. وبالتالي تصبح السلطة هي سلطة الخطاب الذي يتوارى المرسل وراءه.

- ¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، تونس، ط2008، 1، ص: 15.
- ² لسانالعرب، ابن منظور، مادة (حجج)، دار صادر - بيروت، ط1، ج 1، ص: 226. ينظر: الزبيدي، تاجالعروسمنجواهر القاموس، مادة (حجج) الناشر دار الهداية، ج5، ص460.
- ³ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التار يخالعربي، بيروت، ط1، 2000، ص: 505.
- ⁴ نجم الدين الطوفي، علم الجدل في علم الجدل، ص: 104.
- ⁵ عبد الرحمن بدوي، تلخيص الخطابة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط1960، ص: 18.
- ⁶ مرتضى الزبيدي تاجالعروسمنجواهر القاموس، دار الهداية، ج5، ص: 467.
- ⁷ المصدر نفسه، ص: 467.
- ⁸ ابن منظور، لسانالعرب، ص: 226.
- ⁹ ابن منظور، المصدر السابق، ص: 464.
- ¹⁰ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، ص: 466.
- ¹¹ صابر الحباشنة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، دمشق، ط 1، 2008، ص: 46. "فالمصطلحات المعتمدة في هذا السياق تخضع لاجتهادات الباحثين وحدود اطلاعهم ومحاولاتهم ترجمة ما اطلعوا عليه. وهنا نجد البرهان والاستدلال والحجاج والجدال والاستقراء والقياس، وغيرها من المصطلحات الأساسية في النظريات الحجاجية غير مستقرة." ص: 46.
- ¹² عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط 1، 2004، ص: 470.
- ¹³ والتقييم في اصطلاح الفلاسفة تحديد قيمة الشيء بإطلاق حكم قيمي judgement de valeur عليه يرفعه أو يحطه بالنسبة إلى معايير أو مبادئ كونية قوامها العقل أو التواضع الاجتماعي أو ذاتية عاطفية خاصة. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، ط2، 2007.
- ¹⁴ طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1998، ص: 228.
- 80Phillipe Breton, L'argumentation dans la communication, op. cit, p 15.
- 90Philippe Breton, L'argumentation dans la communication, Op. cit, p 16.
- ¹⁷ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 2008، ص: 190.
- ¹⁸ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، ص: 191.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص: 192.
- ²⁰ ديوان عمرو بن كلثوم، ص: 68.
- ²¹ ديوان النابغة الذبياني، ص: 86.
- ²² ديوان طرفة بن العبد، ص: 33.
- ²³ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 201.
- ²⁴ ليونال بلنجي، الحجاج مبادئه وطرقه، ص: 50.
- ²⁵ ديوان امرئ القيس، ص: 372.
- ²⁶ ديوان الخنساء، ص: 84.
- ²⁷ ديوان مالك و متمم ابن نويرة اليربوعي، ص: 125.
- ²⁸ ديوان الخنساء، ص: 89.
- ²⁹ الأيم: المرأة التي فقدت زوجها
- ³⁰ ديوان الخنساء، ص: 66.
- ³¹ المصدر نفسه، ص: 67.
- ³² ديوان الهدليين، دار الكتب المصرية، ط2، 1995، ص: 63-64.
- ³³ المصدر نفسه، ص: 86.
- ³⁴ ديوان الهدليين، ص: 74.
- ³⁵ ديوان ليبيد، ص: 188. (أبو يكسوم: هو أبرهة الحبشي صاحب قصة الفيل)
- ³⁶ الأصمعي، الأصمعيات، ص: 200.
- ³⁷ شعر الصعاليك الذين لا يجدون حرجا في الإغارة على القبائل والقوافل وفي سفك الدماء وسبي النساء، والنهب والسلب، هم يبررون هذا المنهج الذين يتبعون وذاك السلوك الذي يسلكون بكونه وسيلة لغاية سامية هي تحقيق العدالة الاجتماعية، فيعمدون إلى حجة واحدة بأن الغاية تبرر الوسيلة. " سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ص: 221.
- ³⁸ ديوان الشنفرى، ص: 35.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص: 35.
- ⁴⁰ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 352.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص: 19.
- ⁴² المصدر نفسه، ص: 18-19.
- ⁴³ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، ص: 477.
- ⁴⁴ المرجع نفسه، ص: 477.